
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الهجرات الهلالية من خلال بعض الكتابات الفرنسية المعاصرة

الدكتور محمد الشريف

كانت الخلاصات التي ضمّنها الدكتور أحمد الطاهري كتابه "المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية"، مثار نقاش حاد في إحدى حلقة "أربعاء الفكر والتاريخ" بكلية الآداب بتطوان، خاصة ما تعلق منها بنتائج هجرة القبائل العربية إلى بلاد المغرب. فالمؤلف يتحدث عن **"الرّجة المجتمعية والثقافية والعمرانية العنيفة"** التي أحدثها هذه الهجرة ببلاد المغرب بعد القرن الخامس الهجري، ويؤكد أن "سهول بلاد تامسنا ظلت مجالا مفتوحا للأعراب الذين تدفقوا في شكل عشائر بدوية على مجمل بلاد المغرب خلال القرون اللاحقة، **ناشرين الدمار والخراب في المدن والقرى، ومحولين عجلة تاريخ المغرب الأقصى للدوران بالقهقرى**"[180]. ولنا أن نتساءل : ألمْ يدافع أقطاب المدرسة الاستعمارية الفرنسية عن ذات الأطروحة ؟ وأحيانا بنفس العبارات؟ ذلك ما تجيب عنه هذه الدراسة التي قدّمتُها في ندوة : "التحركات البشرية والهجرات اليمنية إلى الشام وشرق وشمال إفريقيا قبل الإسلام وبعده"[181]

***

أثارت هجرة القبائل العربية نحو بلاد المغرب- وما تزال - نقاشا مثيرا بين المؤرخين منذ القرن التاسع عشر الميلادي[182]، وما فتئت نتائج هذه الهجرة

---

[180]- الدكتور أحمد الطاهري، **المغرب الأقصى ومملكة بني طريف البرغواطية خلال القرون الأربعة الهجرية الولى**، الدار البيضاء، 2005، ص217، 220

[181]- هي ندوة نظمتها كلية الآداب بالرباط بتعاون مع "المركز العربي للدراسات الاستراتيجية (دمشق)" و"المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر" (ليبيا) يومي 23 و214 نوفمبر 2004.

[182]- نتوفر على بيبليوغرافية عربية مهمة حول الهجرة الهلالية. إلا أننا لم نعتمدها كثيرا في هذه الدراسة المركزة على الكتابات الفرنسية حول الموضوع. انظر على سبيل المثال : يونس عبد الحميد، **الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي**، القاهرة، 1956؛ ممدوح حسين، " **العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبية**"، الكراسات التونسية، عدد خاص 117- 118، 1981، ص 73- 90؛ الشيخلي صباح، " **الهلاليون في المغرب**"، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 71،70، 1982؛ مصطفى أبو ضيف، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبني مرين**، الدار البيضاء، 1982؛ محمد حسن، **القبائل والأرياف المغربية في العصر الوسيط**، تونس، 1986؛ قيقة عبد الرحمان، **من أقاصيص بني هلال**، تونس، الدار التونسية للنشر، 1987؛ ؛ عمرو أبو نصر، **تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب**، بيروت، د. ت.؛ التقي العلوي، " **أصول المغاربة : القسم الثاني . الهلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى**"، مجلة البحث العلمي، الرباط، العدد، 33، ص 69- 125، عدد 35، 1985 ص 385- 436؛ **سيرة بني هلال**، أعمال الندوة

وانعكاساتها على التطور الحضاري لبلاد المغرب وهويته الحضارية تغذّي جدلا حادا بين الباحثين المعاصرين، وهو جدل لا يخلو من اعتبارات إيديولوجية في بعض الأحيان.

ومن المعلوم أن القبائل الهلالية السليْمية ظلت تنتجع بالواحات الغربية في خط التماس بين بلاد المغرب ومصر منذ أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. ويرجع تواجد زغبة بجهة طرابلس إلى سنة 429 هـ/ 1030م، وقد ذكرت وقتذاك عند الحديث عن نزاع بينها وبين أحد رؤساء زناتة[183]. ويفهم هذا الأمر إذا نظرنا إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي بمصر وبلاد المغرب وقتذاك[184].

وتعزو الرواية التقليدية أسباب ترحيل القبائل العربية الهلالية نحو بلاد المغرب إلى رغبة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الانتقام من نائبه على إفريقية، المعز بن باديس، بعد إعلانه الانفصال والاستقلال التام عن الدولة الفاطمية في مصر منذ سنة 441 هـ/ 1049م[185].

ومما لا شك فيه أن شظف العيش قد دفع بهذه القبائل إلى الهجرة نحو بلاد المغرب قبل سنوات الأربعين من القرن الخامس الهجري/ 11م. ويبدو أن نسقها كان سريعا وحجمها كبيراً إلى حد أن الجموع الأولى بلغت جهة طرابلس، **وبالتالي فإن تسرب عرب الهلالية إلى بلاد المغرب سبق معركة حيدران (443 هـ/1052م)** التي انهزم فيها الجيش الزيري، وكان مسارا بطيئا شمل البلاد الليبية منذ بدايات القرن الخامس الهجري/ 11م انطلاقا من الواحات الغربية، **وتزامن مع حركتي البدو الواقعتين في أطراف البلاد العربية، السلاجقة مشرقا والمرابطين مغربا**[186]. وبذلك يحتمل أن يكون بنو هلال قد وصلوا طرابلس قبل سنة 441 هـ من تلقاء أنفسهم، بحثا عن الكلأ كما هو طبعهم، أو أن تحركهم- شأنه في ذلك شأن تحرك قبائل المرابطين الملثمين- قد

العالمية الأولى حول السيرة الهلالية، تونس، 1990؛ راضي دغفوس، " **معركة حيدران والصراع الزيري الهلالي**"، الكراسات التونسية، عدد خاص 169- 170، 1995، ص 11-26؛ أمين توفيق الطيبي، " **بنو هلال ودورهم في الجهاد في افريقيا والأندلس إلى نهاية القرن السادس، التاني عشر**"، ضم كتابه : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، الدار العربية للكتاب، 1997، ص 73-86؛ نوره محمد عبد العزيز التويجري، " **استخدام القبائل العربية أداة سياسية في يد الخليفة المستنصر بالله الفاطمة**"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، عدد 29، 2004، ص 81- 130 ...

[183]- ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص 145

[184]- انظر التفاصيل في : محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 28

[185]- ابن شرف، **رسالة الاستقصاء**، تحقيق حسني عبد الوهاب، دمشق، 1320هـ ص 110؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، ج 1، ص 278؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 9، ص 217-220،

[186]- محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، م. س. ص 31

ارتبط بالرغبة في السيطرة على المسالك الصحراوية الرابطة بين مصر وبلاد السودان الأوسط والغربي، التي كانت تتحكم فيها القبائل الإباضية من زناتة وغيرها[187]، وبذلك **يُعتقد أنه قد لا تكون ثمة علاقة بين نزوحهم من مصر وإجراء المعز بن باديس**[188].

ومهما كانت أهمية العوامل الاقتصادية، فإن الدولة الفاطمية حاولت الاستفادة سياسيا من هذه الهجرة وتأطيرها. فقد خضع انتشار القبائل إلى خطة مسبقة[189]، منحت بموجبها البلاد إقطاعات للقبائل[190]. ولقد أسفرت "غزوة بني هلال وبني سليم الكبرى" عن نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية كان لها الأثر الكبير في تاريخ المغرب وحضارته.

ومن المعلوم أن أغلب المصادر التاريخية العربية التي تتحدث عن الهجرة الهلالية تعتبرها "زحف جراد"، و"كارثة" حلت ببلاد المغرب، أوْهَنَتْ اقتصاده، وأتلفتْ معالمه ومنشآته الحضارية، وأوقعته في هوة سحيقة[191].

ويستمد هذا الموقف جذوره من روايات المعاصرين للحدث من أمثال شعراء القيروان ومؤرخيها، وخاصة الحصري وابن رشيق، وابن شرف القيرواني، وأبو الصلت[192]. أما المصادر الأخرى التي تحدثت عن الهجرة الهلالية وانتشارها، فإنها جاءت في الغالب متأخرة (الإدريسي، ابن الأثير، ابن عذاري، التيجاني، ابن خلدون... إلخ).

ومن الواضح أن هذه النظرة لم تتضح إلا بعد ثلاثة قرون، أو أكثر، من تاريخ قدوم الهلاليين لافريقية، وتجسدت في ما كتبه ابن خلدون في إطار نظريته العامة عن علاقات البدو والحضر. وهذا الأخير لا يعبر عن الحقيقة كاملة بقدر ما يترجم عن مواقف متباينة لأهل عصره تجاه الأعراب، لا تخلو من الإعجاب تارة، والإدانة أخرى[193]. ففضلا عن كونه يشيد ببأسهم وسجيّتهم

---

[187]- نفسه

[188]- عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج 2، الدار البيضاء، 1994، ص 93

[189]- انظر رأيا مخالفا لهذا عند التقي العلوي، " أصول المغاربة..."، م. س. ص 388، حينما يكتب :"نلاحظ ان غزاة بني هلال في زحفهم هذا لم يتقيدوا بأية خطة مرسومة مسبقا من خطط الغزو المنظم..."

[190]- يقول ابن خلدون في هذا الصدد : " واقتسمت الأعراب بلاد افريقية سنة 466 هـ وكان لزغبة طرابلس وما يليها، ولمرداس بن رياح باجة وما يليها، ثم اقتسموا البلاد ثانية، فكان لهلال من تونس إلى المغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان". (ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج 4، ص 32)

[191] - G. Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècles*, Constantine, Paris, 1913; Id. *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Aubier, Paris (nouvelle éd. Afique Orient, Casablanca, 2003)

E. F. Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord*, Paris, 1952

[192]- راجع H. R. Idris, *La Berbérie Orientale sous les Zirides*, Paris, 1962

[193]- محمد حسن، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، الجزء الأول، جامعة تونس الأولى، 1999، ص 2

Jacques Berque, " du nouveau sur les Bani Hilal?"

وعلوّ أخلاقهم، فإن ذلك لم يمنع ابن خلدون من وصفهم بوحشية لا مثيل لها، إذ قال "سارت قبائل ذياب وعوف وزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر، لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى إفريقية سنة ثلاث وأربعين"[194].

وما يثير التعليق انطلاقا من موقف صاحب المقدمة، الذي كتب تحت تأثير الأزمة الخانقة التي كانت تتخبط فيها بلاد المغرب في القرن الثامن الهجري/ 14م، هو قراءة بعض المؤرخين الفرنسيين للهجرة الهلالية ونتائجها على ضوء موقف صاحب المقدمة، واختلافهم في تقييم نتائجها وأثرها في تاريخ بلاد المغرب وحضارته. إذ تحدث البعض منهم عن "الكارثة الهلالية" التي لم تقتصر انعكاساتها على الفترة التي عقبت الزحف الهلالي مباشرة (خاصة بعد هزيمة حيدران سنة 443 هـ)، إنما سحبت على الفترة اللاحقة من تاريخ بلاد افريقية والمغرب.

وعلى عكس ذلك، اعتبر مؤرخون آخرون أن قدوم الهلاليين قد سرّع فقط صيرورة انهيار افريقية الزيرية التي كانت "على شفة هاوية"، وذهبوا إلى أن نظرية الحدث الحاسم، أو "الكارثة الهلالية"، غير قادرة على تفسير التحولات الكبرى التي عرفتها البلاد المغربية، والتي ابتدأت في القرن الخامس الهجري / 11م، وتواصلت تفاعلاتها أكثر من قرنين من الزمن. ومن نافلة القول أن الهجرة الهلالية لا تشكل الموضوع الرئيسي في مقدمة ابن خلدون ولا في كتابه "العبر"، وإنما أشار إليها ابن خلدون ضمن عدد كبير من أسباب الاضطرابات الأخرى.

, *Studia Islamica*, XXXVI, 1972, p. 100-101

[194]- ابن خلدون، **تاريخ**، ج 4، ص 31

التوظيف الإيديولوجي لنظرية ابن خلدون
عن علاقــات البدو والحضر

اعتبر أغلب المؤرخين الفرنسيين ورواد السوسيولوجية الكولونيالية أن دخول العرب لبلاد المغرب عقب "الغزوة الهلالية"، هو -إلى جانب اعتناق البربر للدين الإسلامي- الحدث الحاسم في تاريخ المغرب. وبذلك أصبحت الهجرة الهلالية الموضوع الأساسي لتاريخ شمال إفريقيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، وبالذات منذ بدايات استعمار الجزائر[195]. وغالبا ما اعتبروا تلك "الغزوة" نكبة الكبرى، وبليّة (Fléau) ابتلى بها المغاربة، ونقطة تحول سلبية في تاريخ المنطقة.

فقد كتب (جورج مارسي) يقول بخصوص قدوم العرب لبلاد المغرب : "لقد أحسّت إفريقية الشمالية بألم عميق، وإلى الأبد، بهذه النكبة". وفي مكان آخر يصرح قائلا : "إن أسلمة بلاد البربر تطرح قضية تاريخية، لا أمل لنا في حلها"[196] , وتساءل (كريستيان كورتوا) من جهته عن أسباب التي أدت ببلاد البربر لكي تكف تتخلى شيئا فشيئا عن "رومانيتها"[197]، وهو بذلك يريد أن يكمل البحث الذي بدأه (إيميل فليكس غوتيي) الذي راح يبحث عن تفسير الكيفية التي أصبحت بها إفريقيا الشمالية أرضا "مشرقية"، أي أرض إسلام، ولماذا لم تتمكن من أن تصبح دولة مغربية مستقلة بعد انهيار سلطة خلفاء المشرق[198]. ونفس الباحث رأى في الزحف الهلالي مجرد تبديد " للثروات الهائلة التي كان قد تم خلقها على عهد السيطرة الرومانية"[199].

---

[195] - A. Carette, *Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentr.onale. Exploration scientifique de l'Algérie*, Paris, 1853
E. Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale*, Paris Constantine, 1875
Id. *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française*, Paris, 1888
[196] -Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946, p. 35
[197]-C. Courtois, *Les Vandales de l'Afrique*, Paris, 1955, p. 7, 91 et ssq., 126- 130, 359
[198] - E. F. Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord*, Pars, 1973, pp. 129- 130, 247 …,Id, *Mœurs et coutumes des musulmans*, Paris, 1931
[199] -E. F. Gautier,*Le passé de l'Afrique du nord: Les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1937, p. 422

أما بالنسبة لـ (شارل أندري جوليان)، فإن الهجرة الهلالية تمثل "هجمة شعب بدوي مخرب"، وهي الحدث الأهم في العصر المغربي الوسيط[200]، يقول :" كانت زحفة بني هلال بلا منازع أخطر[201] حدث عرفته بلاد المغرب أثناء القرون الوسطى. فهي التي أثرت أكثر من الفتح الإسلامي تأثيرا طبع المغرب بطابع لم تمحه القرون. ذلك أن هذه البلاد كانت قبل مجيء الهلاليين - إذا استثنينا الإسلام- بربرية اللغة والعادات في أعماقها. وكانت تسترجع شيئا فشيئا التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق...". ويضيف قائلا : " وأفسد مجيء الهلاليين هذا الانسجام بين نمطين من الحياة يفرضها مناخ المغرب وتضاريسه، وبهم عمّت البداوة، وتحولت الأراضي المعدّة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له، واختنقت قرى ومدن صغيرة وخربت"[202].

ولقد وظف المؤرخون وعلماء الاجتماع بعض المعطيات التاريخية التي تتضمنها مقدمة ابن خلدون وكتابه "العبر" حول البدو العرب، ليقيموا صرحا نظريا بخصوص ثنائية العربي- البربري، وتناحر البدوي- الحضري. وإلى ذلك يشير (جاك بيرك) بقول إن : "تناقض العربي والقبيْلي، قد أصبحت حيزا مشتركا سنة 1845"[203]، كما نبّه (إيف لاكوست) بدوره إلى أن "الأكثرية الساحقة من المؤرخين الفرنسيين لإفريقيا الشمالية، قد وقعوا على موضوعة الغزوات العربية في القرن 11م... ويواجهون بطريقة منهجية، البدوي، الذي يشبهونه عادة (وخطأ) بالعربي، أي الغازي الأجنبي، ويعارضون، بالحضري البربري، المواطن الأصيل، وضحية الغزو" [204].

والواقع إن الإيديولوجية كانت حاضرة في صميم الأبحاث التاريخية الفرنسية التي اتخذت تاريخ بلاد المغرب وحضارته موضوعا لها، ولم يعد خافيا مدى تسخير البحث التاريخي والسوسيولوجي لخدمة الإدارة الاستعمارية الفرنسية ببلاد المغرب. ذلك أن معارضة البدوي بالحضري، سرعان ما أصبحت عنصرا محوريا في الكتابات الفرنسية، وقد كرستها بجلاء كتابات (إيميل فيليكس غوتيي)، أحد ألمع منظري الاستعمار، و"واضع نظرية النزاع البدوي والحضري، وغزوات العرب"، والذي يصفه (إيف لاكوست) بأنه

---

[200] - Ch. A. Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, Payot, Paris, 1936. p. 374

[201]- في الترجمة العربية للكتاب وردت كلمة "أهم"، وهي ترجمة غير دقيقة (شارل اندري جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97-98)

[202]- شارل اندري جوليان، **تاريخ افريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ج 2، 1983، ص 97-98

[203] -Jacques Berques, " Cent vingt ans de sociologie maghrébine", *Annales E.S.C* , N° 3, 1956

[204]- إيف لاكوست، **ابن خلدون**، م. س. ص 83- 84

"تمكن من أن يكون اللولب الإجباري لكل تفكير تاريخي حول إفريقيا الشمالية وحول النظرية الرسمية"[205]. إن تاريخ إفريقية الشمالية بأسرها، بالنسبة لـ(غوتيي)، ليس منذ القدم سوى مبارزة شاسعة ودائمة بين "جنسين متعارضين أساسا من وجهة بيولوجية، في تصرفهما الأبدي... فخلال ألفين كاملين من السنين، ومنذ القدم حتى يومنا هذا، كان المغرب دائما منقسما قسمين لا يتحدان، هما البدو والحضر"، ذلك لأن "غرائز البدوي الأصيل تختلف تماما (عن غرائز الحضري)، فهو شيوعي من خلال نمط حياته... أما من وجهة سياسية، فهو فوضوي، عدمي وعميق الاختيار للتخريب الذي يفتح له آفاقا. **إنه المدمر**، المنكر، حتى انتصاره ليس بمنجزة"[206].

ومن نافلة القول أن أطروحة (جورج مارسي) الموسومة بـ (العرب في بلاد البربر)[207] - وهي سابقة على أطروحة غوتيي[208]-، قد قدمت المادة التاريخية لجل الأعمال التاريخية اللاحقة. إلا أنها في الحقيقة أطروحة كامنة ومتضمنة في كتابات (ميسنيي)[209]، وبصفة خاصة في كتاب (كاريط) : "بحوث في أصول وهجرات قبائل الرئيسية بإفريقية الشمالية"[210] الذي صدر سنة 1853. وفي هذا الكتاب تطرق كاريط للـ"غزوات العربية"، قائلا : "كان هجوم العرب الفاتحين كالإعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل، وهجوم الهلاليين كالحريق الهائل الذي يذر الأشجار والمساكن دمارا تذروه الرياح. فما أبقاه الإعصار قضى عليه الحريق".

ولقد لاحظ عبد الله العروي[211] وغيره[212]، كيف أن المؤرخين الفرنسيين، والمتأخرين منهم خاصة يخلطون عن عمد بين "العربي" و"البدوي"؛ وبين

---

[205]- إيف لاكوست، **ابن خلدون**، م. س.، 94 وكذلك إيف لاكوست، **ابن خلدون واضع علم ومقرر استقلال**، نقله إلى العربية زهير فتح الله، منشورات مكتبة المعارف في بيروت، 1958، ص 83

[206]- مذكور في إيف لاكوست، م. س.، ص 84-85

[207] - G. Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècles*, Constantine, Paris, 1913

[208] -E. F. Gautier, *Le passé de l'Afrique du nord*, Paris, 1937

[209] - E. Mercier, *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale*, Paris Constantine, 1875

Id. *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus anciens jusqu'à la conquête française*, Paris, 1888

[210] - A. Carette, *Recherches sur l'origine et les migrations des tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique de l'Algérie. Exploration scientifique de l'Algérie. 1840-41*, Paris, 1853

[211]- **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، م. س. ص 97

[212]- إيف لاكوست، **ابن خلدون**، م.س، ص 83 وفي ص 84 نقرأ : "لقد استخدمت ترجمة مقدمة ابن خلدون سنة 1863 لتقدم لهذه الموضوعة، التي أصبحت شبه رسمية، تكريسا متألقا بوجه خاص من مثل القول بأن : أحد أعظم المفكرين العرب يؤكد (أو يبدو أنه يؤكد) موضوعة مؤرخي العصر الكولونيالي).

مفهوم "الأعراب" الذي هو مفهوم سوسيولوجي يفيد البداوة والترحال، ومفهم "العرب" الذي تنعت به حضارة من كبريات الحضارات السامية. فهم - حسب عبد الله العروي، "لا يقنعون بالوصف بل يتعدونه إلى الاتهام. لا يكتفون بالقول : هذا ما يفعله البدو الرحل، بل يؤكدون إن هذا هو ما يفعله العرب حيثما كانوا، رغم أنهم يعرفون أن ابن خلدون، أو الإدريسي، يقول العرب ويعني بهم الأعراب، أي البدو، وإن كانوا أصلا من جنس آخر. لكن الأغراض تدفع كتاب عهد الاستعمار إلى استغلال الاشتراك في المعنى،... مع أن التشابه عرضي فقط. كان (دوسلان)، مترجم مقدمة ابن خلدون[213]، أول من تعمّد الخلط، فوضع كلمة عرب كلما وجد لفظة أعراب أو بدو أو رحل. ورسّخ الفكرة أن العربي **مخرّب** بطبعه". ويتساءل عبد الله العروي منتقدا المدرسة الكولونيالية : " بأي عصى سحري، مثلا، يتحول البدوي مخرب الأمصار وهادم الدول عندما يكون زناتيا أو هلاليا، إلى مخطط حواضر ومؤسس إمبراطوريات عندما يكون لمتونيا أو مرينيا أو زيانيا؟ "[214]

ولا يخفى أن العديد من الكتاب الفرنسيين المتأخرين كانوا يرمون من وراء كتاباتهم إلى إحياء العصبية البربرية، وغرس فكرة لدى الأجيال المغاربية مفادها أن العنصر البربري هو الأصل، وأن العرب هم الغزاة الدخلاء. وهي سياسة اعتمدتها الإدارة الفرنسية في تنفيذ مخططها الاستعماري الرامي إلى تفكيك وحدة الشعب المغاربي وفصله عن واقعه العربي الإسلامي[215].

والواقع أن إرادة التقسيم، بصفتها المحرك الأساسي في السياسة الاستعمارية الفرنسية هي التي تبنت "أطروحة" التعارض بين البدوي (العربي) والحضري (البربري) ببلاد المغرب. "فهذه الأسطورة ليست ثمرة الصدفة- كما يقول (إيف لاكوست)- وقد حيكت بوعي، **وانطبعت في إطار الإيديولوجيا الكولونيالية**... فالجنرالات الفرنسيون منذ بداية احتلال الجزائر، جهدوا في تفريق "العرب" وأهل القبائل"[216].

ومن الواضح أن هذه "الأسطورة" كانت تهدف إلى إظهار العرب والإسلام كقوى استعمارية تسلطت على السكان الأهليين (البربر) لتسلب منهم ممتلكاتهم وهويتهم على الخصوص، ومن ثمة، يصبح دور الحماية الفرنسية هو

[213]- من المعلوم أن البارون دو سلان ترجم كتاب العبر إلى اللغة الفرنسية سنة 1852 - 1865 وصدر بالجزائر في أربعة أجزاء، وأعيد طبعه بباريز سنة 1925، وسنة 1965. وترجم المقدمة سنة 1862.

[214]- عبد الله العروي، مجمل **تاريخ المغرب**، ج2، م. س. ص 103

[215]- ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، الجزائر، 1984، ج1، ص 35؛ نفسه، " **التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830- 1962)**"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

[216]- إيف لاكوست، **ابن خلدون**، م.س، ص 97-98

الدفاع عن البربري المضطهد، الذي حافظ، رغم طول "الاستعمار الإسلامي" على أصالته، وعلى استقلاليته[217]. وتلح كتابات هؤلاء المؤرخين الاستعماريين على أن حواضر بلاد المغرب قد انكمشت، والأراضي الزراعية تقلصت بفعل انتشار البداوة التي ارتبطت - حسب رأيهم- بالهجرة الهلالية[218]، وذلك حتى ينتهوا أخيرا إلى الحكم بأن "العهد الروماني" هو الفترة التي عرفت فيها بلاد المغرب الاستقرار، وتطور الزراعة وانتشار العمران. وتماثلها في ذلك فترة "الاحتلال الفرنسي" التي أعادت هي أيضا أمجاد روما، ووضعت حدا للفوضى والاضمحلال، بل تميزت كذلك بالاستقرار واتصفت بالرقي والتقدم. فبلاد المغرب (والجزائر بصفة خاصة)[219] -حسب هذه النظرة المتحيزة- ما هي إلا قطعة من الغرب الأوربي، عاشت فترات مظلمة تحت الاستبداد الشرقي (الإسلامي) قبل أن يسترجعها الفرنسيون، الذين يعتبرون من خلال هذه الأحكام المتحيزة، آخر الفاتحين وأكثرهم تحضرا وإنسانية"[220].

ومن البيّن أن موضوعة "احتلال العرب" لبلاد البربر ابتداء من القرن الحادي عشر، قد كانت **لها في الإيديولوجية الكولونيالية أهمية مزدوجة**. فهي من جهة تجعل الفرنسيين آخر المستولين على بلد عاش دائما في حالة عبودية، ويؤمل أن يبقى كذلك أبدا. وهي من جهة أخرى، تقدم ضمانة تاريخية للسياسة التي ترمي إلى المعارضة المنهجية بين البربر والعرب[221]. أضف إلى هذا أن تجريم العرب ووصفهم بـ "المجتاحين المخربين المضرين" كان مجرد تبرير للإضفاء الشرعية على "الحضور الفرنسي" ببلاد المغرب، واعتباره ينطوي على "مهمة فرنسا الحضارية"، ولا شيء يعبر أحسن عن هذا التوجه من كتاب

217- عبد الصمد الديالمي، "ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب" **المستقبل العربي**، 81، 1985، ص 74

218- انظر على سبيل المثال ما كتبه جورج مارسي في :
La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, op. cit. pp; 208-214

219- من المعلوم أن اهتمام المدرسة الكولونيالية الفرنسية بتاريخ القبائل البربرية كان يهدف "النيل من معالم العروبة بالمغرب، وقد وضعت أدوات تلك السياسية في الجزائر... قبل أن تجد بالمغرب الأقصى مجالا خصبا ومتنوعا لتختبر وتمارس وسط حملة مسعورة وسيل متدفق من الأبحاث والدراسات العلمية وشبه العلمية... ولقد كانت الحقبة المتراوحة ما بين 1914 و 1930 قد تميزت بما يمكن أن نصفه بالسراب البربري، حيث سعى أصحاب السيف وأصحاب القلم من المسؤولين عن الحماية سعيا حثيثا لعزل القبائل البربرية عن القبائل العربية، ولتبرير تلك السياسة بجميع أوجه التبرير" وقد تجسدت تلك السياسية عمليا في إصدار الظهير البربري سنة 1930 (إبراهيم بوطالب،" البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي : حصيلة نقدية"، ضمن كتاب : **البحث في تاريخ المغرب : حصيلة وتقويم**، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1989، ص 130- 131

220- ناصر الدين سعيدوني، **دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر**، م.س. ص 35؛ نفسه، " **التوجه المعادي للعربية والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر (1830- 1962)**"، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد 32، خريف 2004، ص 107

221- إيف لاكوست، **ابن خلدون**، م.س، ص -98

(لويس برتراند)[222]، عضو الأكاديمية الفرنسية، والمنشد الرسمي للحكومة العامة في الجزائر، الذي يتحدث عن "منطقة البربر المسيحية" المرموز إليها بشخص القديس أوغسطينوس، وقد بقيت زمنا طويلا خاضعة للمجتاحين الشرقيين، ثم عادت بفضل فرنسا إلى حضن الغرب، والدين المسيحي.

وقد تصدى لنقد هذه الأطروحات ودحضها، عدد من الدارسين والمؤرخين، عربا وفرنسيين، نذكر من بينهم (إيف لاكوست) الذي أبرز جليا ثغراتها وتهافتها في كتابه "العلامة ابن خلدون"[223]. فهو يعتبر المقابلات بين العربي البدوي، وبين البربري الحضري، مجرد تبسيطات مغلوطة، و"أن سائر البدو ليسوا عربا، وأن كل البربر هم بعيدون عن أن يكونوا سوى حضريين. فالمجموعات "العربية" الأصيلة التي قدمت من الجزيرة العربية، وأقامت في إفريقية الشمالية، لم يكن لها سوى فعاليات جد محصورة. والذين يسمونهم "عربا" في المغرب، ليسوا سوى بربر يستخدمون اللغة العربية... وإذا ما كان قسم من السكان المستمرين في استخدام اللغة البربرية حضريين فعلا... فإن القسم الأخير ممن يتكلمون البربرية هم بدو أو أنصاف بدو... فعلام يستند القسم الأكبر من موضوعة مسؤولية العرب التاريخية، من أجل محاولة تبديل هذه البداهة، التي تنفي بشكل بارز معادلات العربي- البدوي، والبرابرة- الحضريين .

ويؤكد (روبير برونشفيغ) بدوره على "أن الفوارق العرقية لا تمثل إلا جانبا من أهمّ الاختلافات الموجودة، من حيث نمط العيش، لا سيما بين الرحل والمقيمين، أو من حيث الفئات الاجتماعية. فحياة الترحال ليست حكرا على بعض الأجناس البشرية، إنما هي منبثقة عن بعض الظروف الجغرافية المعينة المتلائمة على وجه الخصوص مع الصحراء والسباسب، إلا أنها قابلة للتقدم أو التقهقر حسب الملابسات التاريخية. على أن **حياة الترحال لم تظهر في شمال افريقيا مع العرب**. فمنذ العصور القديمة السحيقة، كانت تظعن بتلك الربوع قبائل بأكملها، بحثا عن المرعى لماشيتها المتكونة من الغنم والمعز. ومع ظهور الإبل في عهد الإمبراطورية الرومانية، كانت بعض فروع من القبائل البربرية تظعن على ظهور الجمال، قبل مدة طويلة من قدوم العرب الأوائل، لا سيما في

---

[222] - L. Bertrand, *Un grand africain, le maréchal de Saint- Arnaud; Le sang des races*, Paris, 1930; *L'Islam et psychologie du musulman*, Paris, 1923

[223] -Yves Lacoste, *Ibn Khaldoun : Naissance de l'histoire passé du tiers monde*, Ed. F. Maspero, Paris

ترجمه دميشل سليمان وصدر بعنوان : **ابن خلدون**، (دار ابن خلدون، ط. 2، 1978)

وانظر كذلك : إيف لاكوست، **ابن خلدون واضع علم ومقرر استقلال**، نقله إلى العربية زهير فتح الله، منشورات مكتبة المعارف في بيروت، 1958

البلاد الجزائرية الحالية. ولكن في العهد الإسلامي، وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، إثر نزوح أعراب بني هلال وبني سليم من الشرق، أحرز ذلك النمط من أنماط العيش، الدور الأول في تلك الربوع وحافظ عليه إلى عهد قريب"[224].

وعلاوة على طابعها الرسمي، فإن موضوعة "مسؤولية البدوي التاريخية"، ونظرية المعارضة الأبدية بين البدو والحضر، لتتعارض مع عدد كبير من الوقائع التي تنشأ عن أكثر الملاحظات الجغرافية بساطة. إن التعارض البدوي الحضري، لو سلمنا بوجوده، لا يتعلق بالأقسام العرقية واللغوية. وفوق ذلك، يستطيع رعاة وقرويون أن يتعايشوا داخل تشكيل سياسي واجتماعي بالغ التصغير، وتكون وحدته هي، مع ذلك، جد قوية. وقد بين (ر. برونشفيغ) مثلا، أنه فيما يتعلق بإفريقية وُجدت في العصر الوسيط قبائل متشكلة، متساوية الحقوق، وذات أقسام حضرية وبدوية، تكمل إحداهما الأخرى[225]. إن التعارض الأساسي المشهور بين الحضر والبدو يجب أن يعاد إلى قياس أصح. وليس أقل من أن نعرف بأن إفريقيا الشمالية عرفت مراحل اضطراب خطيرة بنوع خاص، وطويلة. فهل هي بالضرورة نتيجة "الغزو البدوي"؟ ولكن، هل حصل "غزو" حقيقة؟ ويضيف (إيف لاكوست) موضحا : "إن **سلاطين المغرب كانوا يجهدون في استجلاب القبائل العربية بدلا من البحث عن كيفية صدها**، وغالبا ما كانت القبائل مكرهة على التخلي عن الأراضي التي تجتازها لكي تقيم في مناطق أخرى. ولم تكن الهزيمة الكبرى التي تكبدتها القبائل العربية على يد الخليفة الموحدي في سطيف سنة 1152م بهدف قطع الطريق على هذه القبائل، بل كانت على العكس ترمي إلى دفعها للقدوم إلى مراكش والقيام بخدمته.

وهكذا فإن عبارة "الغزوة" غير صحيحة إطلاقا، للدلالة على تنقل القبائل العربية في القرن 11م عبر إفريقيا الشمالية. إن عبارة "الإبعاد" بالرغم من إفراط معناها، تصلح أن تكون أساسا أكثر دقة. كما أن الأمر يعني، في أغلب الحالات، دعوة للقبائل، وتقييدا حقيقيا. وقد كتب (جورج مارسي) يقول : "يخطىء الظن من يعتد بأن سلاطين البربر كانوا في حالة عدوان دائم مع العرب... إن حضورهم كان معتبرا أحيانا بمثابة حدث مرغوب فيه".

ويضيف (إيف لاكوست) قائلا: "إن التناحر الأساسي بين البدو والحضر، بين العرب والبربر، لا يتفق والحقيقة التاريخية. **الأمر يتعلق بأسطورة**. ولقد

---

[224] -Robert Brunscvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*, tome 2, Paris, 1947, p. 159

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ص 162

[225] - *La Berbérie Orientale*… op. cit. II, 421

آمن بها مؤرخون رزينون، بالرغم من أن أبحاثهم تدحض هذه النظرية في العديد من النقاط الأساسية. إن جورج مارسي، وهو أحد أهم دارسي قضية العرب والبربر، قد سجلها منذ البداية في مقدمة كتابه، بالرغم من أنه جمّع من الوقائع ما يجعلها الدليل على أنه لم يكن ثمة "غزوة" حقيقية[226].

آثار الهجرة الهلالية لبلاد المغرب :
من البحث الاستعماري إلى البحث الأكاديمي

إن هذه الأطروحات التي كانت لصيقة بالسلطات الاستعمارية الفرنسية، قد **أحياها مؤخرا المؤرخ (الهادي روجي إدريس) في خاتمة كتابه حول "افريقية الزيرية"**. ولئن حاولت أطروحة هذا الأكاديمي تخطي ابن خلدون واستغلال المصادر المعاصرة للحدث، فإنها تهوّل بدورها من حدث الهجرة الهلالية، وتلقي باللائمة على القبائل العربية فيما أصاب افريقية من اضطراب وانحلال. يقول :

"لقد شهدت نهاية عهد المعز بن باديس (442-454 هـ/1050- 1062م) كارثة سياسية واقتصادية لم يسبق لها مثيل، ألا وهي "غزوة" أو "زحفة" بني هلال. ذلك أن الخليفة الفاطمي، بناء على النصيحة المكيافيلية التي أسداها إليه وزيره [اليازوري]، قد أسلم إفريقية إلى جحافل الأعراب الرُّحل الذين كانوا يضايقونه. وفي ظرف بضع سنوات أصبحت نكبة الأمير الناكث للعهد أمرا مفروغا منه"[227].

ولقد كرر (الهادي روجي إدريس) هذه النظرة الكارثية للتاريخ في خاتمة كتابه حينما كتب يقول :

"ولا ريب أن غزوة بني هلال تمثل بداية عهد جديد. ولا حاجة لنا - عند ذكر هذه **الكارثة الخارقة للعادة**- إلى تأكيد أهمية استعمال الظرفيْن "قبل" و "بعد"[228].

226- ايف لاكوست، **ابن خلدون**، م.س، (في مواضع مختلفة)

227- H. R. Idris, *La Berbèrie Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles*, vol. I, Paris, 1962, p. 206

الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية : تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، 1992، ص 245

228 - H. R. Idris, La *Berbérie Orientale sous les Zirides, Xe- XIIIe siècles*, vol. II, Paris, 1962, p. 828

(الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية**، ج2، ص 448)

وحسب (الهادي روجي إدريس) فإنه على عكس جميع الصراعات وجميع التخريبات التي سبقتها، فإن "الأعراب الهلاليين الزاحفين بأعداد غفيرة وبأقل فوضى مما كنا نعتقد، قد استولوا على السهول وعلى عدد كبير من المدن التي خُرّبت وأصبحت في وضع متخلخل، وأطردوا السكان المستقرين من البربر المستعربين والبربر الرحل والمنتجعين، الذين فروا زرافات ووحدانا، فالتجأ الأولون إلى الجبال والتجأ الآخرون إلى لمراكز القادرة على التصدي للغزاة"[229].

ويجدر بنا التذكير بأن (الهادي روجي إدريس) هو تلميذ لـ(روبير برونشفيك)، وحضّر أطروحته تحت إشرافه، وعلى هدْيه سار في تنظيم فصولها وأبوابها، ولربما تأثر ببعض خلاصات أستاذه المشرف حول "مسؤولية العرب" الرحل فيما آلت إليه الأوضاع بافريقية. فقد كتب روبير برونشفيك يقول : "وهكذا فقد ظهرت في إفريقية الحفصية، في أغلب مناطقها، بمظهر الأرض المخصصة لظعن البدو الرحل، أو الخاضعة لسيطرتهم. فقد أجلوا عددا كبيرا من السكان المستقرين، واكتسحوا جموعا غفيرة أخرى، ولم تستطع الدولة نفسها، التي هي دولة حضرية، من حيث الجوهر والغاية، إلا بشق الأنفس أحيانا، الخلاص من ذلك السيل الجارف المدمر والمنذر بالخطر.

ذلك أنه ينبغي أولا وقبل كل شيء إبراز ذلك الجانب المدمر من نشاطهم، لأنه يمثل أبرز وأقرب سمة للواقع، من طبائعهم ونشاطهم. فمما لا شك فيه أن البدو قد عملوا على تقهقر الزراعات وتقلص عدد سكان المدن والقرى. إذ أن مجال تحركاتهم لا يتحمل سوى وجود سكان مشتتين، كما أنهم، هم أنفسهم، يشترطون التصرف في فضاء أوسع لاستيعاب عدد محدود من البشر نسبيا. وتبعا لذلك فقد قبلوا الاقتصاد رأسا على عقب **وخرّبوا**، خلال توسعهم نحو الغرب، أكثر من مركز معمور، لا سيما في منطقة السباسب، وأكثر من منطقة زراعية كانت مزدهرة في أوائل العصر الوسيط. ولكن الأخطر من ذلك بدون شك، هو أن أعمالهم التخريبية لم تكن تتوقف أبدا عند المرحلة الأولى من غزوتهم، بل إن تلك الأعمال المريعة قد تواصلت وتكررت عبر العصور. وقد تسببوا إلى حد كبير في اختلال الأمن الذي كان يعاني منه السكان المقيمون والرحّالون على حد سواء، وفي الفوضى السياسية التي انتشرت في أغلب الأحيان. ولقد ألحّ مؤلفو الرحلات والجغرافيون والمؤرخون في كتبهم، على الرعب الذي أثاره العرب الرحل في إفريقية. ففي كتاب من كتب التراجم، مثل "معالم الإيمان"، وفي كتاب من كتب مناقب الأولياء الصالحين مثل "مناقب سيدي ابن عروس"، يتكرر ذكر أسمائهم باعتبارهم مرادفا للفوضى والدمار. وفي حياتهم اليومية نراهم يتمردون على الدولة لا يحترمون الزراعات

---

[229] -Idem, p. 829 (الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية**، ج2، ص 449- 450)

ويسلبون القوافل، ويعيثون فسادا في الأرياف ويبدون استعدادهم دوما وأبدا لاقتحام المدن. فكانوا بتلك الصورة يثيرون ويغذون في نفوس ضحاياهم مشاعر الحقد والرعب. ويبدو لنا وكأننا تجاه عالميْن متناهضين، يحاولان البقاء بصعوبة جنبا إلى جنب، وتعمل خلافاتهما الجوهرية على الإخلال بالأمن الداخلي للبلاد بدون انقطاع"[230].

ولقد أثارت أطروحة (الهادي روجي إدريس) جدلا في أوساط المؤرخين ومن بين الذين تصدوا لنقدها يبرز إسم (جان بونسي). فقد ذهب في نقاشه إلى أن (الهادي روجي إدريس) لا يعمل سوى على تكريس الحكم السلبي حول أثر القبائل العربية التي بعث بها الخليفة الفاطمي إلى افريقية الزيرية في القرن الخامس الهجري، والذي صاغه كل من ابن خلدون والتجاني في القرن الثامن الهجري/ 14م، بعد ثلاثة قرون من ذلك الحدث؛ وأن خلاصاته لا تعدو أن تكون اجترارا للأطروحة التي رأت النور منذ (إيميل فليكس غوتيي) بصفة خاصة، والتي تستند على فحص "يخلو من الروح النقدية لكتابات ابن خلدون والتجاني". والاعتماد على مثل هذه المصادر المتأخرة، دون أخذ ما يجب من حيطة منهجية تجاهها، قد يوقع المؤرخ في مغالطات تاريخية، خصوصا وأن المصادر المعصرة للأحداث لا تقدم مثل تلك الصورة السلبية عن القبائل الهلالية، بل حتى المؤرخين الفرنسيين السابقين أمثال (جورج مارسي) و(شارل أندري جوليان)، لا يتبنون الأطروحة "الكارثية" للقبائل الهلالية، بل إن (غوتيي) نفسه احتاط من إطلاق أحكام مطلقة عن الدور السلبي للهلاليين - حسب (بونسي)- وشبه أثر هجرتهم وزحفهم على البلاد الإفريقية "**بخميرة في رغيفة**" وعن إسهام جديد للقبائل العربية الرحل[231]. ودون أن يتبنى (جان بونسي) هذه الأطروحة، فإنه يشير إلى بعض المؤرخين الأفارقة الذين يتحدثون عن "زحف بطيء" لموجات الرحل، وعن تطور لا يشكل فيه قدوم القبائل الهلالية سوى "**محطة نهائية**"، وهو ما يفند النظرة "الكارثية" التي يتبناها (الهادي روجي إدريس)، خصوصا وأن عددا من النصوص التي جمعها (الهادي روجي) نفسه، تنقض أطروحة "الكارثة الهلالية" من أصلها.

وفي بحثه عن **أصل المشكلة** يعتقد (جان بونسي) إن القطيعة التي أحدثها أمير إفريقية الزيري مع الخليفة الفاطمي العبيدي لم تكن سوى تكريس لفعل

---

[230] -R. Brunschvig, *La Berbérie Orientale sous les Hafsides*, II, pp. 159-161
روبار برنشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1988، ص 162- 163 (ويستشهد الهادي روجي إدريس بهذه القولة في نقاشه لمنتقديه كما سنرى)

[231] - Jean Poncet," Le mythe de la catastrophe Hilalienne", *Annales ECS*, 1968, p. 1100

تمتد جذوره إلى رحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر سنة 971 م. فقد صاحب معه مؤيديه من عساكر كتامة ورؤساء جندها، وعدد كبير من الأطر الإدارية العليا، والقوى البحرية التي كانت تضمن سيطرة العبيديين على البحر، كما صحب معه كنوز عدة راكمها خلال وجوده بإفريقية، وهو ما شكل نزيفا في مقدرات إفريقية الاقتصادية، الأمر الذي أثار حفيظة الطبقة التجارية والسكان الحضريين الذين رأوا بلادهم تنحدر إلى مرتبة ولاية، بعدما كانت مقر السلطة العليا.

ويرى (جان بونسي) أن ربط تخريب الزراعات، وطمس الآبار، ونسف الزروع، وإشعال الحرائق، وتخريب الأمصار في الحواضر وفي القرى بالقبائل الهلالية، لهو رأي يتجاهل أن **المخربين الحقيقيين المنظمين** كانوا هم جماعات النهابين الباحثين عن إرهاب الساكنة الحضرية والقروية لابتزازها إلى أقصى حد، بإجبارها على أداء الإتاوات لهم، أو أنها في أغلب الأحيان، **أعمال السلاطين أنفسهم**، الراغبين في معاقبة السكان الثائرين، أو إرغام السكان المحاصرين على الاستسلام لهم. من ذلك مثلا ما يذكره (الهادي روجي إدريس) نفسه، نقلا عن ابن الأثير، من أن تميما حاصر قابس سنة 474 هـ/ 1081-1082م حصارا شديدا (دن أن يتمكن من احتلالها)، وضيق على أهلها، وعاث عساكره في بساتينها المعروفة بالغابة، فأفسدها"[232]. وعانت القلعة بدورها من حصارات كثيرة وطويلة سيرها ملوك القيروان وتم تخريب ضواحيها أكثر من عشر مرات، من قبل السلطان لا من قبل الهلاليين.

ويبرز (جان بونسي) كثرة التناقضات التي نجدها بين من يلقون المسؤولية على الهلاليين في جميع المصائب التي حلت ببلاد المغرب، وبين معطيات المصادر التي تتحدث عن الصراعات الداخلية، وعن هذه الفوضى المولدة للفتن من جميع الأنواع، والتي **ترجع أسبابها إلى فترات سابقة**، وبعضها **أسباب خارجية** عن إفريقية. ويبرز (جان بونسي) أسباب خراب القيروان وانحدار افريقية الزيرية قائلا :

"إن خراب الدولة الزيرية أو بعبارة أدق، هجران القيروان من قبل برجوازيتها ومن قبل من تبقى من حاشية السلطان، مع ثرواتها، يعكس لنا الانحدار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي المرتبط بعوامل عميقة ومتشعبة[233]. فقد خرجت المقاطعات الطرفية عن سلطة المركز، مثل جهة طرابلس والحضنة والجريد، وبرزت "جمهوريات برجوازية صغيرة" يرأسها مجلس شورى، كما هو الشأن في تونس وسوسة وطرابلس. وفي أحيان أخرى

---

[232]- الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية**، ج1، ص 342 (النص الفرنسي، ص 300)

[233] -Poncet, "Le mythe de la catastrophe hilalienne", op. cit. p. 1118

نجد أرستقراطيات محلية لم تكن تريد البقاء في تبعية أمراء القيروان، وأداء الإتاوات وتقديم الهدايا لهم، تطلعت للاستقلال كما هو الشأن بالنسبة لصفاقس وقابس وبيزرت مثلا. وغالبا ما نسجت هذه الكيانات الصغرى **روابط مع المحاربين الرحل لتأمين حمايتها عسكريا**، وحماية خطوط التجارة والتجار. وهذه الوضعية لا تختلف كثيرا عما ساد سابقا من خروج للمناطق الهامشية عن سلطة الدولة المركزية.

فتوسط المراكز الحضرية الجديدة بالمناطق الغربية والجنوب الغربي من بلاد المغرب، ونمو ثرائها، وتسرب التأثيرات التجارية، والأنشطة الفلاحية المختلفة والمبادلات، والتقدم التقني، وظهور اقتصاد يقوم على المعاملات النقدية، والعلاقات الجديدة التي ربطت السكان بالخارج، وظهور واحات-موانىء للقوافل التجارية الصحراوية، ونشأة وتوسع عواصم جديدة، وظهور سلالات حاكمة جديدة، كل هذا يمثل الأساس الذي انبنى عليه الانحلال الزيري".

ينضاف إلى ذلك النزاعات الداخلية بحواضر افريقية بين الشيعة والسنة، والصراع الصنهاجي مع المحور الأموي- الزناتي، وتراجع قيمة الدينار والدرهم الزيريين، وما نجم عنه من ارتفاع الأسعار وازدياد الأزمة الاجتماعية، خاصة بعد هزيمة حيدران، لما تمكن الجنود الفارون ورقيق الأرض والبؤساء من الانقضاض على الأثرياء في المدن والأرياف، والقيام بعمليات سلب ونهب وقطع الطرقات، وهو ما حمل أهالي القيروان على الهجرة.

يتزامن ذلك مع الضغط الخارجي وما عرفته الأوضاع بحوض البحر الأبيض المتوسط من تغيرات ساهمت بدورها في الانحلال الزيري، ومنها تطور الجمهوريات الإيطالية - بيزة وجنوة وأمللفي، والبندقية...- وتقوية الجانب النورماندي في جزيرة صقلية[234].

والواقع أن هذا التوصيف ينسجم مع عدد من النصوص التاريخية، التي استشهد بها الباحث محمد حسن في أطروحته حول "المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي[235] - وكلها تفيد، **بانخرام الوضع بإفريقية قبيل الهجرة الهلالية**.

ففي سنة 395 هـ/1004م "كانت بإفريقية شدة عظيمة، انكشف فيها الستور، وهلك فيها الفقير وذهب مال الغني وغلت الأسعار وعدمت الأقوات وجلى أهل البادية إلى أوطانهم، وخلت أكثر المنازل، فلم يبق لها وارث. ومع

---

[234] - J. Poncet, " Le mythe de la catastrophe hilalienne", op. cit. , pp. 1102-1111

[235]- محمد حسن، م. س.، ص 31- 33

هذه الشدة وباء الطاعون، هلك فيها أكثر الناس من غني ومحتاج... وجاء خلق من أهل الحاضرة والبادية إلى جزيرة صقلية... وقيل أن أهل البادية أكلوا بعضهم بعضا"[236]

وفي سنة 409 هـ/ 1018م أي بعد ثلاث سنوات من استئصال شأفة الشيعة بالقيروان، ظهر الغلاء مصحوبا بالحروب الكثيرة، وأصبح قطاع الطرق ذارعين يمينا وشمالا بواحات الجريد وأريغ. وفي نفس تلك الحقبة، ومنذ سنة 408 هـ، دار الصراع بين زناتة وصنهاجة بناحية طرابلس، حتى أن عددا هاما من السكان أجلي من واحات الجنوب الشرقي، وتحول إلى وادي أريغ وورجلان[237].

وفي سنة 420 هـ بلغت زناتة مشارف القيروان، وأعادت الكرة ثانية بعد خمس سنوات، وبقيت الحرب سجالا بين الطرفين إلى حد سنة 428 هـ/ 1036م لما تمكن المعز من صد هذا الهجوم والتقدم إلى بلاد الزاب.

وفي سنة 430 هـ/ 1038 كثر الخصب بإفريقية، لكن جهة طرابلس عرفت آنذاك هول الجوع والتشرد، في الجزر المتوسطية والواحات، حتى أن هذه الكارثة التي سميت "بسنة فراورا"، ظلت راسخة في المخيال الشعبي، وأضحت مرجعية تاريخية. وفيها استولى هاجس الخوف لاستيلاء اللصوص على الطرقات وكثرة الغارات، وخراب العمران، كما برزت مسحة من التشاؤم لدى علماء العصر الذين أكثروا من "ذم أهل هذا الزمن".

ومن هذه النصوص إشارة هامة وردت في النويري، وتتعلق بما آلت إليه البلاد من وهن وتفكك عند وصول الهلالية إليها، إذ قال : "ودخلت العرب، **فوجدوا** بلادا خالية طيبة كثيرة المراعي، كانت عمارتها زناتة، فأبادهم المعز"[238].

ولقد تبنى (كلود كاهن) - وهو الذي ظل أسير "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال- هذه النظرية النقدية التي دافع عنها (جان بونسي)، واعتبرها نظرية "مقنعة وصحيحة"[239].

ولم تزحزح هذه الانتقادات والاعتراضات من قناعة (الهادي روجي إدريس) حول الدور السلبي للقبائل الهلالية، بل دفعته للرد عنها في مقال

---

[236]- الشماخي، **كتاب السير**، تحقيق محمد حسن ص 294

[237]- ابن عذاري، **البيان**، 1، 269

[238]- النويري، **نهاية الأرب**، ج 24، ص 211

[239] - Claude Cahen, " Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme" *Journal of Economic and Social History of Orient*, 9, 1968, pp. 130- 133

بعنوان :" حقيقة الكارثة الهلالية"[240]، قبل أن يردفه بمقال آخر تحت عنوان : "الهجرة الهلالية ونتائجها"[241] وفي كلتا الدراستين / الردّين نجده متشبثا بالخلاصات التي دافع عنها في أطروحته/ كتابه[242].

ففي رده على (كلود كاهن)، ساق (الهادي إدريس) عشر ملاحظات، نجدها مفصلة في رده على (جان بونسي)[243]، وهذه الملاحظات هي التالية :

1- كانت إفريقية " قوة عظمى حقيقية" قبل الفاطميين.

2- كانت تعتمد على "مواردها الإقليمية" أساسا، من دون إهمال الموارد المتأتية من المبادلات التجارية الخارجية.

3- "عدم انضباط المناطق الطرفية للسلطة المركزية" هي إحدى ثوابت تاريخ الغرب الإسلامي برمته.

4- من المفارقة التاريخية التصريح بأن "الإحساس بهذه الصعوبات كان يزيد من صعوبة الإبقاء على تبعية سكان إفريقية للقاهرة. فوجود هذا الإحساس، وهو إحساس عصري، يحتاج إلى إثبات، فمن كان يحس به؟ إن التبعية للفاطميين لا علاقة لها بالاضطرابات الداخلية.

5- لم يكن هناك على عهد الزيريين " غلبة الفقهاء" أو غلبة " المذهب الإسماعيلي" مطلقا. ربما كان ذلك في البلاط، فتشيع صنهاجة كان تشيعا سطحيا أكثر من تشيع باقي السكان، وخاصة سكان القيروان، والمدن التي كانت ضد التشيع حتى النخاع كانت تابعة للفقهاء والعلماء المالكيين.

6- أعترف أن الهلاليين لم يكونوا مسؤولين بصفة مطلقة عن الفوضى التي سادت البلاد. لنفترض أنها كانت في حالة كمون. فالصراع المستمر بين الرحل والمستقرين يؤكد ذلك. ولكن من ينكر أن مرضا ما بإمكانه - عندما يتعدى حدا معينا- أن يهلك الجسم الذي كان قد تعود عليه. فهشاشة التوازن بين نمطي الحياة يفسر قطيعته عقب الزحف الهلالي، وغلبة الترحال.

---

[240] - Hady Roger Idris, "De la réalité de la Catastrophe Hilalienne", *Annales ESC,* 1968, pp. 390-396

[241] - H. R. Idris, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", *Cahiers de civilisations médiévales,* 1968

[242]- وقد ساهم هنري طيراس بدوره في النقاش مساندا أطروحة الهادي روجي إدريس.
Henri Terrasse, " Citadins et grands nomades dans l'histoire de l'Islam", *Studia Islamica*, 29, 1969, p. 12, note 1 والجدير بالذكر أن هنري طيراس لا ينفصل عن المدرسة الفرنسية الاستعمارية

[243]- H. R. Idris, "L'invasion hilalienne et ses conséquences", *Cahiers de civilisations médiévales,* 1968

7-لا شيء يسمح بتأكيد أن "الأرستقراطيين المحليين" فضلوا التفاهم مع الزاحفين عوض البقاء خاضعين للزيريين. فالوقائع المتعلقة بهذا الجانب مرتبطة بعامة الناس لا بالأرستقراطية.

8- إن وثائق "الجنيزة" توحي أن هناك انحطاطا للتجارة الخارجية لإفريقية الزيرية قبل الغزو الهلالي. ولكننا لا نعرف الأهمية المطلقة، ولا النسبية للمبادلات التجارية، ولا انعكاس ذلك الانحطاط على اقتصاد البلاد وعلى المستوى المعيشي بصفة عامة.

9- من الواضح أن الرّحل حينما يخربون الزراعة، فإن ذلك يتم "من دون إرادة مسبقة" لفعل ذلك.

10- أوافق على الملاحظات المتعلقة بـ"البداوة - سياسيا على الأقل- لمجموع العالم الإسلامي في القرن العاشر والحادي عشر للميلاد. وأدين "الذاتية" التي تدفع بالباحث إلى التركيز على هذا العنصر أو ذاك، من دون سند مصدري. ومن هنا، وللتخلي عن "أسطورة " الكارثة الهلالية، أطالب بالوثائق التي تدحض الفكرة، وأعيب على جان بونسي كونه لا يقدم أي سند مصدري لأطروحته، ولا يحتفظ إلا بالأحداث التي تؤيد أطروحة مناقضة لكل الوثائق المستعملة، ولكل ما تعلمته طيلة ثلاثين سنة من البحث حول عقلية المجتمع المغاربي في العصر الوسيط الأعلى[244].

ولقد رد (جان بونسي) على جواب (الهادي روجي إدريس) في مقال مركز[245]، لم ير فيه (الهادي روجي) إضافة جديدة إلى النقاش.

واعتبر (جاك بيرك) أن هذا "الجدل" يمكن أن يصبح عقيما طالما أنا لم نجمع، حول الحدث نفسه، وحول إطاره وآثاره، كمّا مصدريا ووثائقيا واسعا ومباشرا[246]. وينتقد النظرية التقليدية التي تدين بني هلال وتعتبرهم سبب قطيعة في تاريخ بلاد المغرب، وبسببهم أصبح المغرب "بلد اقتصاد شارد" أو تائه، حسب تعبير (هنري طيراس) *pays d'économie égarée*[247] الذي وجد الاستعمار صعوبة كبيرة في جعله يستقر على أسس متينة -كما يستشف ضمنيا من هذه المقولة-

---

[244] -H. R. Idris, " L'invasion hilalienne et ses conséquences", *Cahiers de Civilisations médiévales*, 1968, p. 357, note 5

[245] - Jean. Poncet," Encore à propos des Hilaliens. La mise au point de R. Idris", *Annales ECS*, 1968, p. 660- 662

[246]- J. Berque," Du Nouveau sur les Beni Hilal," *Studia Islamica*, 36, 1972, p. 110

[247] -H. Terrassa, "L'ancien Maroc, pays d'économie égarée", *Revue de la Méditerranée*, 1947

كما أنه ينتقد كثير من المؤرخين الذين "يدافعون، بالوكالة، عن الممالك الصنهاجية التي كانت قائمة، ويصفون الحكم الذي قام على أنقاضها بالفوضوي" ويتساءل في خاتمة مقاله مستنكرا : " لكن لماذا الحديث عن الفوضى، عوض الكلام عن التعدد، وعن العودة إلى الأصول؟ "[248]

واضح أننا أمام نظريتين متناقضتين : "النظرية التقليدية" المعادية لبني هلال التي دافع عنها المؤرخون الفرنسيون المتأخرون وينعتها جاك بيرك "بالفكرة التاريخية الشائعة المبتذلة " *Une vulgate historique*". وقد أحياها (الهادي روجي إدريس)؛ و"النظرية النقدية" التي يذهب أصحابها إلى أن الهجرة الهلالية لم تعمل سوى على تسريع الانهيار الزيري، وأن الأوضاع بإفريقية كانت متأزمة قبل قدوم العرب إليها.

يتصدى العروي لنقد التيارين معتبرا أنهما يسبحان في بحر العموميات ولا يبرحان أبدا مستوى الأنماط التبريرية. يصف الأول بالتبسيط والتلفيق، ويرى أن أصحاب التيار الثاني يظهرون "أن المجتمع المغلوب كان، قبل تفتته وانهياره أمام فاتحيه، جائرا استغلاليا، منقسما على نفسه، تحكم فيه أقلية دخيلة أغلبية ناقمة عليها ومغايرة لها في العقيدة أو اللغة أو العرق... ولذا نراهم يرددون، بعلم منهم أو بغير علم، تلك البراهين التي عوّدنا عليها كل دارس يروم تبرير فتحا من الفتوحات،... وتتلخص في القولة التالية : كل فتح لا بد أن تسبقه أزمة عميقة في البلد المفتوح".

وبما أن الجميع يعتمد على نفس المصادر (الأخبار، المناقب، الأحكام الفتوى) التي كتبها في الغالب فقهاء يعادون في نفس الوقت أمراء بني زيري وأشياخ القبائل الهلالية. فلا عجب إذا وجد فيها كل فريق ما يؤيد نظرته. فلا يمكن، والحال هذه، الفصل بينهما مهما طال النقاش"[249]. وما يمكن في آخر التحليل أن يرجح كفة إحدى النظريتين حول المسألة المطروحة، حسب العروي، هو شهادة وثائق أصيلة عن تطور التجارة البعيدة في أواسط القرن الخامس/ 11م... مثل وثائق **الجنيزة** القاهرة، التي تؤيد النظرية النقدية، بما أنها تتضمن رسائل تشير إلى نوع من الانحطاط الذي مسّ مجموع الغرب الإسلامي "سنوات عدة قبل وصول جحافل البدو الحجازيين"[250]. وبالتالي فإنها تعتبر البداوة (بمعناها السياسي العسكري) نتيجة أكثر مما هي سبب وباعث.

[248] - Ibid, 111; " En lisant les nawazil Mazouna", *Studia Islamica*, XXXII, 1970, pp. 31-39

[249]- العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، ص 97-98

[250]- نفسه، 103

ويرى (جاك بيرك) بدوره أن " التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده الذي يمكنه الفصل فيما إذا كانت مساهمة الأعراب الرحل في حياة إفريقية، ابتداء من منتصف القرن 5/ 11م قد خربت البلاد أم لا، قد حولت محاور التجارة الخارجية أو لا، وإن لم تكن الأزمة ترجع إلى عقدين من قبل قدوم العرب، وإن لم تكن ترتبط بأزمة عامة ضربت حوض البحر المتوسط برمته"[251].

خلاصة القول إنه يمكن التمييز بين اتجاهين كبيرين في أبحاث المؤرخين الفرنسيين المتأخرين والمعاصرين حول الهجرات الهلالية وآثارها المختلفة على بلاد المغرب : اتجاه أول يمثل "النظرية التقليدية" حول الهجرة الهلالية، وقد غلبت عليه النظرة السلبية لتلك الهجرات، كما هو واضح من كتابات (جورج مارسي) و(إيميل فيليكس غوتيي) ومن لفّ لفهما، والتي يجب فهمها على ضوء الخلفية الإيديولوجية الكامنة وراءها، والانعكاسات المترتبة عن الترجمات غير السليمة للمصادر الأساسية حول الموضوع إلى اللغة الفرنسية. أما الاتجاه الثاني ويمكن نعته بـ "النظرية النقدية"، ويمثله باحثون أمثال من أمثال (جان بونسي) و(جاك بيرك) و(إيف لاكوست) و(كلود كاهن) وغيرهم الذين تصدوا للأحكام والمغالطات الواردة في كتابات مؤرخي الاتجاه الأول.

[251] - J. Berque," Du Nouveau sur les Beni Hilal," *Studia Islamica*, 36, 1972, p. 110